الفصل الثانى
حياة ابن المبارك

ولكن من هو ابن المبارك ؟ لقد تحدثنا عنه عالمًا ناضجًا فكيف نشأ ؟ إنه – كما ينقل صاحب تاريخ بغداد – عبد الله بن المبارك أبو عبد الرحمن المروزى مولى بنى حنظلة ، وكانت أمه خوارزمية ، وكان أبوه تركيًا .

ويتحدث عمرو بن على عن سنة ميلاده فيقول : ولد عبد الله بن المبارك سنة ثمان عشرة ومائة ، وولد بمرو ، والمروزى نسبة إلى مرو ، وتعلم بمرو العلوم الإسلامية ؛ ووسائل العلوم الإسلامية .

لقد حفظ القرآن وتعلم العربية ونحوها وصرفها وبلاغتها ، وتثقف فى الفقه والحديث ، واستمر بمرو إلى أن بلغ الثالثة والعشرين من عمره المبارك ، وأخذ من العلوم أساسًا قويًا ، وربما كان له فى هذه السن المبكرة شىء من الشهرة ؛ فقد كان ذا حافظة قوية لا يكاد يفلت منها شىء مما تسمع ، وفى ذلك يقص صخر وهو صديق لابن المبارك قصة حدثت له ولابن المبارك ذات يوم .

لقد كانا فى الكتاب معًا يحفظان القرآن ، وخرجا من الكتاب وأخذا فى الطريق إلى وجهتهما وبينما هما فى الطريق إذا بخطيب يخطب ووقفا ينصتان إلى الخطبة ، ولما انتهى الخطيب قال ابن المبارك : لقد حفظتها ، ويبدو أن الخطبة كانت طويلة ، وذلك أن كلمة ابن المبارك عن أنه حفظها أثارت عجب أحد السامعين فقال كالمتحدى : هاتها .

فأعادها ابن المبارك حرفًا حرفًا ، ولقد هدده أبوه يوما بأن يحرق كتبه . فكانت إجابة ابن المبارك إن كتبه فى صدره : إنه يحفظها .

بيد أن هذه الذاكرة قد تحكم فيها ابن المبارك فجعلها تقبل ما يحب وترفض ما لا يحب – إن فى العلوم الغث الكثير واللغو والخرافات ، والذاكرة مهما كانت طاقة معينة ومن الخير أن لا يهتم الإنسان إلا بالنافع المفيد من مسائل العلم ، وكان ابن المبارك يسير على هذا المبدأ .

لقد سأله أحد المحيطين به قائلا : هل اشتغلت بمزاولة حفظ الأحاديث ؟ فكان جوابه : إنى أقرأ فما راقنى نقش فى قلبى فكان محفوظا .

وفى ذلك يقول محمد بن النضر بن مساور قال : قال أبى : قلت لعبد الله – يعنى ابن المبارك – يا أبا عبد الرحمن هل تحفظ الحديث ؟ قال : فتغير لونه وقال : « ما تحفظت حديثًا قط ، إنما آخذ الكتاب فأنظر فيه ، فما أشتهيه علق بقلبى » .

كان ابن المبارك ذكيا ، وكان ذا ذاكرة قوية ، وكان مجدًّا ، ومن الطبيعى أن ينال – وهو فى سن مبكرة – شيئًا من التقدير وشيئًا من الشهرة .

ويحدثنا أحمد بن سنان فيقول : بلغنى أن ابن المبارك أتى حماد بن زيد فى أول الأمر ، قال فنظر إليه فأعجبه نحوه ، فقال له : من أين أنت ؟ قال : من أهل خراسان . قال : من أى خراسان ؟ قال : من مرو ، قال : تعرف رجلا يقال له عبد الله بن المبارك ؟ قال : نعم .

قال : ما فعل ؟ .

قال : هو الذى تخاطب . قال : فسلم عليه ورحب به ، وحسن الذى بينهم .

وتمضى الأيام ، ويلتقى من جديد بحماد ، وعن ذلك يقول إسماعيل بن على بن إسماعيل : بلغنى عن ابن المبارك أنه حضر عند حماد بن زيد مسلمًا عليه ، فقال أصحاب الحديث لحماد بن زيد : يا أبا إسماعيل ، تسأل أبا عبد الرحمن أن يحدثنا ؟ .

فقال : يا أبا عبد الرحمن تحدثهم ، فإنهم قد سألونى ، قال : سبحان الله يا أبا إسماعيل ، أحدث وأنت حاضر ؟ قال : فقال : أقسمت لتفعلن – أو نحوه .

ومن طريف الأمر أن ابن المبارك استجاب فقال : خذوا ولم يحدثهم إلا عن حماد بن زيد .

وكان طموحا ولا يتأتى لمن كان كذلك إلا أن يضرب فى الأرض طلبا لما ينقصه من علم أو تقوى أو مال .

وغادر ابن المبارك مرو لأول مرة فى سن الثالثة والعشرين إلى العراق ، وكان ذلك سنة إحدى وأربعين ومائة .

إن بغداد إذ ذاك كانت مركز أنظار الطامحين سواء أكان طموحهم من أجل الدنيا أم من أجل الدين ، وسافر ابن المبارك إلى العراق : إلى مختلف مدنها الشهيرة – ولم يقف شغف ابن المبارك عند العراق ، بل سافر إلى أقطار أخرى وخصوصًا الحجاز .

وكان إذا خرج إلى مكة أنشد شعره :

بغض الحياة وخوف الله أخرجنى وبيع نفس بما ليست له ثمنا

إنى وزنت الذى يبقى ليعدلـه ما ليس يبقى فلا والله ما اتزنـا

وحينما كان يصل إلى مكة يذهب إلى الحرم ويشرب من ماء زمزم وينوى بالشرب من ماء زمزم أمرًا يرجو الله أن يحققه ، وفى ذلك يقول سويد بن سعيد : « رأيت عبد الله بن المبارك بمكة أتى زمزم فاستقى منه شربة ، ثم استقبل الكعبة ، ثم قال : اللهم إن ابن أبى الموال ، حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر عن النبى ﷺ أنه قال : « ماء زمزم لما شرب له » وهذا أشربه لعطش القيامة ثم شربه » .

وفى أثناء هذه السياحات افتتن ابن المبارك بشخصيات هى من خيار الأمة :

لقد افتتن بالفضيل بن عياض ، وافتتن بسفيان الثورى ، وافتتن بالإمام مالك وافتتن بأبى حنيفة رضى الله عنهم .

ابن المبارك والعلم :

يقول صاحب وفيات الأعيان فى ذلك : « أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح المروزى ، مولى بنى حنظلة ، كان قد بين العلم والزهد وتفقه على سفيان الثورى ، ومالك بن أنس رضى الله عنهما وروى عنه الموطأ ، وكان كثير الانقطاع محبًّا للخلوة ، شديد التورع ، وكذلك كان أبوه » .

ونحب أن نقف قليلا عند هذه الكلمة لصاحب وفيات الأعيان :

إنه يقول : « كان قد جمع بين العلم والزهد » :

أما عن العلم فإن أبا أسامة يقول : ما رأيت أطلب للعلم من عبد الله بن المبارك .

ويقول المؤرخون عنه إنه : « طلب العلم ، وروى رواية كثيرة ، وصنف كتبًا كثيرة فى أبواب العلم ، وكان ثقة مأمونًا حجة كثير الحديث » .

ويقول الذهبى عنه أنه : دون العلم فى أبواب الفقه وفى الغزو والزهد والرقائق وغير ذلك .

ويتبين الإنسان مكانته العلمية إذا نظر فى قائمة الكتب التى ألفها ابن المبارك .

وإذا كان ابن المبارك قد اشتهر بالحديث ويقول فيه أبو أسامة :

« كان ابن المبارك فى الحديث مثل أمير المؤمنين فى الناس » .

فإنه مع ذلك اشتغل بتفسير القرآن ، ويذكر صاحب « الفهرست » أن له تفسيرًا للقرآن .

ولقد اشتغل بالتاريخ ، ويذكر ابن النديم أيضًا أن له كتابًا فى التاريخ وله كتابًا فى « الفتاوى » .

واشتغل ابن المبارك بالفقه ، وألف فيه كتاب : (السنن فى الفقه) .

ويقول ابن سعد : طلب العلم ، وروى رواية كثيرة ، وصنف كتبًا كثيرة فى العلم وصنوفه ، حملها عنه قوم وكتبها الناس عنهم ، وقدم العراق والحجاز ، والشام ، ومصر ، واليمن وسمع علما كثيرًا ولقد تفقه – كما يقول صاحب (وفيات الأعيان) على سفيان الثورى ، ومع أن سفيان الثورى أستاذه ، فإنه كان يتمنى أن لو أتيح له أن يكون كابن المبارك سنة واحدة ؛ أو حتى ثلاثة أيام ، وهذا تقدير كريم من الأستاذ لتلميذه ، وتفقه على الإمام مالك ، وروى عنه الموطأ .

ولكنه تفقه بأبى حنيفة ، يقول صاحب النجوم الزاهرة : وأكثر الترحال فى طلب العلم ، وروى عن جماعة كثيرة ، وروى عنه خلائق ، وتفقه بأبى حنيفة » .

ومن تقديرهم لمنزلته فى الفقه ما يقوله محمد بن المعتمر بن سليمان : قال : قلت لأبى : يا أبت ، من فقيه العرب ؟ .

قال : سفيان الثورى ، فلما مات سفيان الثورى ، قلت لأبى : من فقيه العرب ؟ قال : « عبد الله بن المبارك » .

ويقول إبراهيم بن شماس : رأيت أفقه الناس ، وأورع الناس ، وأحفظ الناس ؛ فأما أفقه الناس فابن المبارك ، وأما أورع الناس : ففضيل بن عياض ، وأما أحفظ الناس : فوكيع بن الجراح .

خلوة ابن المبارك علمية :

ونأتى من جديد لكلمة صاحب وفيات الأعيان عن ابن المبارك ، يقول : « وكان كثير الانقطاع ، محبًّا للخلوة » .

وهو فى انقطاعه هذا الذى يشير إليه صاحب وفيات الأعيان ، كان دارسًا للعلم . وله فى ذلك كلمات طريفة ، عن أبى داود قال : قلت لابن المبارك : من تجالس بخراسان ؟

قال : أجالس شعبة وسفيان .

قال أبو داود : يعنى أنظر فى كتبهما .

وعن شقيق بن إبراهيم البلخى قال : قيل لابن المبارك : إذا صليت معنا لم لا تجلس معنا ؟

قال : أذهب مع الصحابة والتابعين .

قلنا له : ومن أين الصحابة والتابعون ؟

قال : أذهب أنظر فى علمى فأدرك آثارهم وأعمالهم فما أصنع معكم ! أنتم تغتابون الناس .

ومن تقديرهم له فى الجانب العلمى . ما رواه يحيى بن آدم قال : « كنت إذا طلبت الدقيق من المسائل فلم أجده فى كتب ابن المبارك ، أيست منه » .

وما رواه المعتمر بن سليمان قال : « ما رأيت مثل ابن المبارك ، تصيب عنده الشىء الذى لا تصيبه عند أحد » .

وهو نفسه كان شاعرًا بمنزلته .

عن السندى بن أبى هارون قال :

كنت أختلف مع ابن المبارك إلى المشايخ ، قال : فربما قلت له : يا أبا عبد الرحمن ، ممن نستفيد ؟

قال : « من كتبنا » .

ولابن المبارك كلمات كثيرة فى العلم ونصائح نذكر منها ما يلى :

من كلامه : « تعلمنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا » .

وكان يقول : « عجبت لطالب العلم كيف تدعوه نفسه إلى محبة الدنيا مع إيمانه بما حمل من العلم » .

وعن عبد الصمد قال : سمعت الفضيل يقول : قال ابن المبارك : أكثركم علما ينبغى أن يكون أشدكم خوفا .

وكان يقول : « من شرط العالم أن لا تخطر محبة الدنيا على باله » .

وقيل له : مَنْ سفلة الناس ؟ قال : « الذين يتعيشون بدينهم » .

وكان يقول : « إذا تعلم أحدكم من القرآن ما يقيم به صلاته فليشتغل بالعلم فإن به تعرف معانى القرآن » .

ابن المبارك عالم اتباعى :

ولقد كان ابن المبارك عالما على النسق الاتباعى ، وهذا النسق الاتباعى هو سبيل كل العلماء المحبين لرسول الله ﷺ ، والذين يستجيبون لأمر الله الذى يقول :

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا[1]﴾ .

لقد اتخذ ابن المبارك رسول الله ﷺ أسوة له فى كل خطواته ، وإذا كان بعض الناس يقرأ الأحاديث الشريفة المتعلقة بالاتباع ، ويقتصر على القراءة ، فإن ابن المبارك وكثيرًا من المخلصين قد حققوها واقعيًا :

ومن حديث رسول الله ﷺ فى الاتباع : عن أبى سعيد الخدرى قال . قال رسول الله ﷺ : « من أكل طيبًا ، وعمل فى سنة ، وأمن الناس بوائقه دخل الجنة » قالوا . يا رسول الله ، إن هذا فى أمتك اليوم كثير ؛ قال : « وسيكون فى قوم بعدى »[2] .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خطب الناس فى حجة الوداع فقال : « إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم ، ولكن رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم . فاحذروا ، إنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا كتاب الله وسنة نبيه[3] .

---

(١) الأحزاب ٢١ .

(٢) رواه ابن أبى الدنيا والحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٣) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « الاقتصاد فى السنة أحسن من الاجتهاد فى البدعة »[1] .

وعن ابن عباس قال : خطب رسول الله ﷺ ، فقال :
إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه ،ألا إن الله قد فرض فرائض ، وسن سننا ، وحد حدودًا ، وأحل حلالا ، وحرم حراما ، وشرع الدين فجعله سهلا سمحًا واسعًا ولم يجعله ضيقًا ، ألا إنه لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ، ومن نكث ذمة الله طلبه ، ومن نكث ذمتى خاصمته ، ومن خاصمته فَلَجْتُ عليه[2] ، ومن نكث ذمتى لم ينل شفاعتى ولم يرد علىّ الحوض[3] » .

وعن عباس بن ربيعة ، قال : رأيت عمر بن الخطاب رضى اللهعنه يقبل الحجر (يعنى الأسود) ويقول : « إنى لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك »[4] فعمر يفضل الاتباع .

ولقد كان الإمام الجليل عبد الله بن عمر ، من خير من طبق الاتباع عمليا ، ومن أخباره فى ذلك : عن زيد بن أسلم قال : « رأيت ابن عمر يصلى محلولا إزاره ، فسألته عن ذلك ،فقال : رأيت رسول الله ﷺ يفعله[5] » .

---

(١) رواه الحاكم موقوفا وقال إسناده صحيح على شرطهما .
(٢) فلجْتُ عليه :غلبته وظهرت عليه .
(٣) رواه الطبرانى فى الكبير .
(٤) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .
(٥) رواه بن خزيمة فى صحيحه ، ورواه البيهقى .

وعن مجاهد قال : كنا مع ابن عمر رحمه الله فى سفر ، فمرّ بمكان فحاد عنه ، فسئل : لم فعلت ذلك ؟ قال : « رأيت رسول الله ﷺ ، فعل هذا ففعلت[1] » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان يأتى شجرة بين مكة والمدينة فيقيل تحتها ، ويخبر أن رسول الله ﷺ ، كان يفعل ذلك[2] .

وعن ابن سيرين قال : كنت مع ابن عمر رحمه الله بعرفات ، فلما كان حين راح رحت معه حتى أتى الإمام فصلى معه الأولى والعصر ، ثم وقف وأنا وأصحاب لى حتى أفاض الإمام فأفضنا معه حتى انتهى إلى المضيق دون المأزمين ، فأناخ وأنخنا ، ونحن نحسب أنه يريد أن يصلى ، فقال غلامه الذى يمسك راحلته : « إنه ليس يريد الصلاة ، ولكنه ذكر أن النبى ﷺ لما انتهى إلى هذا المكان قضى حاجته فهو يحب أن يقضى حاجته[3] » .

وكان ابن المبارك متبعًا لا مبتدعًا ،وكان يحذر من المبتدعين ؛ يقول إسماعيل الطوسى قال ابن المبارك : يكون مجلسك مع المساكين ، وإياك أن تجلس مع صاحب بدعة .

وعن عبد الله بن عمر السرخسى قال :إن الحارث قال : أكلت عند صاحب بدعة أكلة فبلغ ذلك ابن المبارك ، فقال : « لا كلمتك ثلاثين يوما » .

---

(١) رواه أحمد والبزار بإسناد جيد .
(٢) رواه البزار باسناد لا بأس به .
(٣) رواه أحمد ، ورواته محتج بهم فى الصحيح .

ومن أهم الأخبار التى وردت عن ابن المبارك أنه قيل له : إن شيبان يزعم أنك مُرْجىء .

فقال : كذب شيبان ، أنا خالفت المرجئة فى ثلاثة أشياء :

فإنهم يزعمون : أن الإيمان قول بلا عمل ، وأنا أقول هو قول وعمل .

ويزعمون : أن تارك الصلاة لا يكفر ، وأنا أقول : إنه يكفر .

ويزعمون : أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، وأنا أقول : إنه يزيد وينقص » .

وأمر الاتباع ليس بغريب على ابن المبارك الذى كان من شأنه ما يرويه نعيم بن حماد : « كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرقائق يصير كأنه ثور منحور ، أو بقرة منحورة من البكاء لا يجترئ أحد منا أن يدنو منه ، أو يسأله عن شىء إلا دفعه » .

وما يرويه شعيب بن شعبة : كان إذا قرأ شيئًا من كتب الوعظ كأنه بقرة منحورة من البكاء لا يجترئ أحد أن يدنو منه ولا يسأله عن شىء » .

ومن مظاهر شدة تقدير ابن المبارك لكل من يمت إلى العلم بصلة والمحافظة على من ينتسب إلى الدين ، ما رواه أبو داود الطرسوسى قال : قلت لعبد الله بن المبارك : إنا نقرأ بهذه الألحان ؟ فقال :

إنما كره لكم منها ، إنا أدركنا القراء وهم يؤتون تسمع قراءتهم ، وأنتم تدعون اليوم كما يدعى المغنون .

ومن تقدير ابن المبارك للعلم والعلماء أنه بلغه عن إسماعيل بن علية أنه قد ولى الصدقات ، فكتب إليه ابن المبارك :

يا جاعل العلم له بازيا يصطاد أموال السلاطين
احتلت للدنيا ولذاتها بحيلة تذهب بالدين
فصرت مجنونًا بها بعد ما كنت دواء للمجانين
أين رواياتك والقول فى لزوم أبواب السلاطين
إن قلت أكرهت فما هكذا زل حمار الشيخ فى الطين

وكان يقول : على العاقل أن لا يستخف بثلاثة : العلماء والسلطان والإخوان ، فإن من استخف بالعلماء ذهبت آخرته . ومن استخف بالسلطان ذهبت دنياه . ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته .

ونختم هذه الكلمات فى العلم بما يلى :

سئل عبد الله بن المبارك : ما ينبغى للعالم أن يتكرم عنه ؟

قال : ينبغى أن يتكرم عما حرم الله تعالى عليه ، ويرفع نفسه عن الدنيا فلا تكون منه على بال » .

ونعود إلى كلمة صاحب وفيات الأعيان ،إنه يقول : وكان شديد التورع وكذلك أبوه .

ابن المبارك والورع والزهد :

وورع ابن المبارك مشهور معروف عند الخاصة والعامة ، ومن كلامه الحكيم فى الورع :

عن عباس بن عبد الله قال : قال عبدالله بن المبارك لو أن رجلاً اتقى مائة شيء ولم يتورع عن شيء واحد لم يكن ورعًا ،ومن كان فيه خلة من الجهل كان من الجاهلين ، أما سمعت الله تعالى قال لنوح عليه السلام لمَّا قال :

﴿ رَبِّ : إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ .

فقال الله :﴿ إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ﴾[1] .

ويقول الحسن : رأيت فى منزل ابن المبارك حمامًا طائرة ، فقال ابن المبارك : كنا ننتفع بفراخ هذه الحمام ، فليس ننتفع بها اليوم ، قلت : ولم ذلك ؟ قال : اختلطت بها حمام غيرها فتزاوجت بها فنحن نكره أن ننتفع بشىء من فراخها من أجل ذلك .

وقال على بن الحسن بن شقيق : سمعت ابن المبارك يقول : لأن أرد درهمًا من شبهة أحب إلى من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف حتى بلغ ستمائة ألف .

ولم يكن ورعًا فحسب ، بل كان زاهدًا أيضًا ، ومن كلماته فى الزهد ، وتقدير الزاهدين أنه كان يقول : « سلطان الزهد أعظم من سلطان الرعية ، لأن سلطان الرعية لا يجمع الناس إلا بالعصا ، والزهد ينفر من الناس فيتبعوه » .

وفهمه للزهد فهم الأتقياء الصالحين إنه يقول : « دعواك الزهد لنفسك يخرجك عن الزهد »

ولقد سئل مرة : من الملوك ؟ فقال الزهاد .

خشيته :

لقد كان ورعًا ، وكان زاهدًا ، ويصحب ذلك شعور بالخشية ، هذه الخشية التى تصاحب العلماء دائما ؛ العلماء المخلصين ، ومن طريف ما يروى فى ذلك أن القاسم بن محمد قال : « كنا نسافر مع

---

(١) هود : الآية ٤٦ .

ابن المبارك فكثيرًا ما كان يخطر ببالى فأقول فى نفسى : بأى شىء فضل هذا الرجل علينا ، حتى اشتهر فى الناس هذه الشهرة ، إن كان يصلى ، إنا لنصلى ، وإن كان يصوم إنا لنصوم ، وإن كان يغزو فإنا لنغزو ، وإن كان يحج فإنا لنحج .

قال : فكنا فى بعض مسيرنا فى طريق الشام ليلة نتعشى فى بيت إذ أُطفئ السراج فقام بعضنا فأخذ السراج خرج يستصبح فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج ، فنظرت إلى وجه ابن المبارك ، ولحيته قد ابتلت من الدموع فقلت فى نفسى بهذه الخشية فضل هذا الرجل علينا ،ولعله حين فُقد السراج فصار إلى ظلمة ذكر القيامة » اهـ .

تواضعه :

ويضاف إلى كل ذلك التواضع الجم ، وفى ذلك يقول الحسن عنه : بينما هو بالكوفة يقرأ عليه كتاب المناسك انتهى إلى حيث هو فيه قال عبدالله : وبه نأخذ ، فقال : من كتب هذا من قولى ؟ ، قلت : الكاتب الذى كتبه فلم يزل يحكه بيده حتى درس ثم قال ومن أنا حتى يكتب قولى .

وفى حفل الزواج الذى أقامه محمد بن النفر لولده دعى ابن المبارك فلما جاء قام ابن المبارك ليخدم الناس ، فأبى النضر أن يدعه وحلف عليه حتى جلس .

التاجر الثرى :

ولكن ابن المبارك الذى كان ورعًا وكان زاهدًا وكان يمتلىء خشية هو ابن المبارك التاجر الكبير الثرى الضخم الثراء ، وهو فى ذلك

يقول : « لا يخرج العبد عن الزهد إمساك الدنيا ليصون بها وجهه عن سؤال الناس » .

إن ابن المبارك بهذا الثراء العريض يصحح فكرة التوكل وفكرة الزهد التى يسىء الناس – أحيانا – فهمها ، ليس التوكل تجردًا عن المال ، وليس الزهد رفضًا للثراء . وكل الذين يأخذون على الصوفية رفضهم للمال وللثراء وينتقدونهم من أجل ذلك مخطئون ، والمسألة فى الواقع مرجعها تحكم المال فى الشخص واستعباده له ، أو تحكم الشخص فى المال وجعله وسيلة لمرضاة الله سبحانه .

إن الله سبحانه حث على اكتساب الرزق وأمر بالضرب فى الأرض والمشى فى مناكبها قال تعالى :

﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وآتُوا الزَّكَاةَ وأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ، وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ(٢) ﴾ .

ورسول الله ﷺ حث على العمل ، وعلى اكتساب الرزق :

عن أبى عبد الله الزبير بن العوام رضى الله عنه قال : قال

(١) سورة المزمل : من الآية ٢٠ .
(٢) الملك : ١٥ .

رسول الله ﷺ : « لأن يأخذ أحدكم حبله ، ثم يأتى الجبل فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف بها خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه[1] » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من يسأل أحدًا فيعطيه أو يمنعه[2] ».

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « كان داود عليه السلام لا يأكل إلا من عمل يديه[3] » .

وعن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يديه ، وإن نبى الله دواد ﷺ كان يأكل من عمل يديه »[4] .

وحث صلوات الله وسلامه عليه ، على الابتعاد عن المسألة والسؤال :

عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس فى وجهه مزعة لحم[5]» .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سأل الناس تكثرًا فإنما يسأل جمرًا فليستقل أو ليستكثر »[6] .

---

(١) رواه البخارى .
(٢) متفق عليه .
(٣) رواه البخارى .
(٤) رواه البخارى .
(٥) متفق عليه .
(٦) رواه مسلم .

وعن أنس رضى اللهعنه أن رجلا من الأنصار أتى النبى ﷺ فسأله فقال النبى : « أما فى بيتك شىء ؟ قال : بلى . حلس – وهو نوع من الكساء – نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقعب – وهو قدح للشرب – نشرب فيه من الماء ، قال : ائتنى بهما ، فأتاه بهما ، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال : من يشترى هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم ، قال رسول الله ﷺ : من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثا قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه فأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصارى وقال : اشتر بأحدهما طعامًا فانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدومًا فأتنى به ، فأتاه به فشد رسول الله ﷺ عودًا بيده ثم قال : اذهب فاحتطب وبع ، ولا أرينك خمسة عشر يومًا ، ففعل فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوبًا وببعضها طعامًا ؛ فقال رسول الله ﷺ : هذا خير لك من أن تجىء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة »[1] .

– وعن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : فأعطانى ، ثم سألته فأعطانى ، ثم سألته فأعطانى ، ثم قال : « ياحكيم ،إن هذا المال خضر حلو فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى » .

قال حكيم : فقلت يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق لا أرزأ[2] أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا ، فكان أبو بكر رضى الله عنه ،

---

(١) رواه أبو داود .

(٢) لاأرزأ : أى لا أصيب من أحد شيئًا .

يدعو حكيما ليعطيه العطاء، فيأبى أن يقبل منه شيئًا، ثم إن عمر رضى الله عنه، دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله ، فقال : يامعشر المسلمين أشهدكم على حكيم أنى أعرض عليه حقه الذى قسمه الله له فى هذا الفيء فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ أحدًا من الناس بعد النبى ﷺ حتى توفى[1] .

والمنهى عنه فى الدين الإسلامى هو أن تصرف التجارة عن ذكر الله ، أو يصرف الكسب عن ذكر الله . قال تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجمعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2] .

والله سبحانه وتعالى يتحدث عن :

﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ، وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3] .

إنهم يتاجرون ويبيعون ويشترون ، ولكن ذلك كله لا يلهيهم عن ذكر الله ، فمدحهم الله تعالى بذلك .

وذم الله سبحانه قومًا لأنهم انصرفوا عن الله ، والسبب هو جريهم وراء جمع المال وتكديسه ، يقول سبحانه :

---

(١) متفق عليه .

(٢) الجمعة : ٩ ، ١٠ .

(٣) النور : ٣٧ ، ٣٨ .

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لترونَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[1] .

والجو الإسلامى كله إنما هو توجيه نحو تحقيق الصورة التى تتمثل فى قوله تعالى :

﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ ، وَلاَتَفْرَحُوا بِمَآ آتاكُمْ﴾[2] .

ويمدح رسول الله ﷺ التاجر الصدوق فيقول ما معناه : « التاجر الصدوق الأمين يحشر يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » .

وليس فى الإسلام حث أو توجيه إلى الفقر ، بل على العكس من ذلك فيه حث وتوجيه إلى الثراء الذى لا يلهى عن ذكر الله .

وإن من يتدبر فريضة الزكاة ، وأنها ركن من أهم أركان الإسلام وأن هذا الركن يتحدث الله سبحانه وتعالى عنه كثيرًا فى القرآن ، وأنه ركن لا يقوم بأدائه الفقراء ، وأن الفقراء ينقصهم تحقيق أحد أركان الإسلام ، إن من يتدبر ذلك يعلم يقينًا أن الإسلام يحث على اكتساب الثراء ، ويعلن أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، ويعلن أنه كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يعول .

وإن من يتدبر الآيات القرآنية الكثيرة ، والأحاديث النبوية المتعددة عن الصدقة ، وعن جزاء المتصدقين ، وعن مكافأة الله لهم فى الدنيا

---

(١) سورة التكاثر .

(٢) الحديد : من الآية ٢٣ .

وفى الآخرة ،يعلم أن الفقر فى ذاته ليس فضيلة إسلامية ، وأن الممدوح إنما هو الغنى الشاكر – خلافًا لمن ذهب إلى القول بتفضيل الفقير الصابر – وأن الفقير ليس محلا للثناء من أجل فقره .

وابن المبارك ، وهو من كبار المتابعين للسنن الإسلامية ،كان يكتسب المال الكثير من وراء تجارته ، وكان مثله مثل سيدنا عثمان ذى النورين الذى موَّل جيش العسرة وحفر بئر رومة ، وقال فيه رسول الله ﷺ : « اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض » .

وكان مثله كمثل سيدنا عبد الرحمن بن عوف الذى كان يتبرع بمئات الجمال وما تحمله فى سبيل الله .

كان ابن المبارك يتاجر وكان التراب يتحول فى يده إلى ذهب كما يقولون فى التاجر الناجح ، وكانت تجارة ابن المبارك نقل البضائع من مكان إلى مكان ، وكان ربحه يأتيه من فرق السعر ، وهذا النوع من التجارة يشبه ما نسميه الآن : الاستيراد والتصدير – وكَان بعض الناس يرى ما يشبه التناقض بين الزهد عند ابن المبارك وعمله فى الاستيراد والتصدير :

فعن على بن الفضيل قال : سمعت أبى وهو يقول لابن المبارك – أنت تأمرنا بالزهد ، والتقلل ، والبلغة ، ونراك تأتى بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام ، كيف ذا ؟ ويرد ابن المبارك على ذلك ردًّا جميلا حكيما منطقيًّا فيقول :

يا أبا على إنما أفعل ذا لأصون به وجهى ، وأكرم به عرضى ، وأستعين به على طاعة ربى ، لا أرى لله حقا إلا سارعت إليه حتى أقوم به .

فقال له الفضيل : يا بن المبارك ما أحسن ذا ، إن تم ذا ؟ .

وإذا كان بعض التجار يكنز المال ويتسم بالبخل فقد كان من خلق عبدالله بن المبارك :السخاء .

يقول العباس بن مصعب المروزى : « جمع ابن المبارك الحديث والفقه ، والعربية ، وأيام الناس والشجاعة والسخاء » .

وكان سخاؤه يشبه الأساطير وكل ما يروى عنه فى هذا الباب من الطرائف الطريفة ، يقول إسماعيل بن عياش : « ما على وجه الأرض مثل عبدالله بن المبارك ، ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها فى عبدالله بن المبارك ، ولقد حدثنى أصحابى أنهم صحبوه من مصر إلى مكة ، فكان يطعمهم الخبيص[1] ، وهو الدهر صائم » .

ويتحدث عن سخائه عمر بن حفص الصوفى – بمنبج – فيقول :

خرج ابن المبارك من بغداد يريد المصيصة ، فصحبه الصوفية ، فقال لهم : أنتم لكم أنفس تحتشمون أن ينفق عليكم ، ياغلام هات الطست ، فألقى على الطست منديلا ثم قال : يلقى كل رجل منكم تحت المنديل ما معه .

قال : فجعل الرجل يلقى عشرة دراهم والرجل يلقى عشرين فأنفق عليهم إلى المصيصة فلما بلغ المصيصة ، قال : هذه بلاد نفير[2] ، فنقسم ما بقى ، فجعل يعطى الرجل عشرين دينارًا ، فيقول :

---

(١) الخبيص : طعام من التمر والسمن .

(٢) بلاد نفير : بلاد حرب .

يا أبا عبدالرحمن إنما أعطيت عشرين درهما ، فيقول : وما تنكر أن يبارك الله للغازى فى نفقته ؟ ؟ .وكان فى رحلاته إلى الحج كأنه هارون الرشيد الذى تصوره ألف ليلة وليلة فى البذل والعطاء ، يقول محمد بن على بن الحسن بن شقيق : سمعت أبى قال : كان ابن المبارك إذا كان وقت الحج اجتمع عليه إخوانه من أهل مرو ، فيقولون :نصحبك يا أبا عبد لرحمن ؟ .

فيقول لهم : هاتوا نفقاتكم ، فيأخذ نفقاتهم فيجعلها فى صندوق فيقفل عليها ، ثم يكترى لهم ويخرجهم من مرو إلى بغداد ، فلايزال ينفق عليهم ويطعمهم أطيب الطعام ،وأطيب الحلواء ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زى وأجمل مروءة ، حتى يصلوا إلى مدينة الرسول ﷺ ، فإذا صاروا إلى المدينة قال لكل رجل منهم : ما أمَرَكَ عيالك أن تشترى لهم من المدينة من طرفها ؟ فيقول كذا ، فيشترى لهم ، ثم يخرجهم إلى مكة ، فإذا وصلوا إلى مكة وقضوا حجهم ، قال لكل واحد منهم : ما أمرك عيالك أن تشترى لهم من متاع مكة ؟ فيقول : كذا وكذا ، فيشترى لهم ، ثم يخرجهم من مكة فلايزال ينفق عليهم إلى أن يصيروا إلى مرو ، فإذا وصل إلى مرو جصص أبوابهم ودورهم ، فإن كان بعد ثلاثة أيام صنع لهم وليمة وكساهم ، فإذا أكلوا وسروا ، دعا بالصندوق ففتحه ودفع إلى كل رجل منهم صرته بعد أن كتب عليها اسمه .

قال أبى : أخبرنى خادمه أنه عمل آخر سفرة سافرها دعوة ، فقدم إلى الناس خمسة وعشرين خواناً فالوذج .

قال أبى : وبلغنا أنه قال للفضيل بن عياض : لولاك وأصحابك ما اتجرت ؟

قال أبى : وكان ينفق على الفقراء فى كل سنة مائة ألف درهم .

ويقول محمد بن عيسى : كان عبدالله بن المبارك كثير الاختلاف إلى طرسوس ، وكان ينزل بالرقة فى خان ، فكان شاب يختلف إليه ويقوم بحوائجه ، ويسمع منه الحديث ، قال : فقدم عبدالله الرقة مرة فلم ير ذلك الشاب ، وكان متعجلا ، فخرج فى النفير ، فلما قفل من غزوته ورجع الرقة سأل عن الشاب ، قال فقالوا : إنه محبوس لدين ركبه .

فقال عبدالله : وكم مبلغ دينه ؟ .

فقالوا : عشرة آلاف درهم ، فلم يزل يستقصى حتى دل على صاحب المال ، فدعا به ليلا ووزن له عشرة آلاف درهم ، وحلفه ألا يخبر أحدًا مادام عبد الله حيًّا ، وقال :إذا أصبحت فأخرج الرجل من الحبس ، وأدلج عبد الله ، فأخرج الفتى من الحبس .

وقيل له : عبدالله بن المبارك كان هاهنا ،وكان يذكرك ، وقد خرج ، فخرج الفتى فى أثره فلحقه على مرحلتين ، أو ثلاث من الرقة .

فقال : يا فتى أين كنت ؟ لم أرك فى الخان ؟ .

قال : نعم يا أبا عبد الرحمن ،كنت محبوسًا بدين .

قال : فكيف كان سبب خلاصك ؟ .

قال : جاء رجل فقضى دينى ولم أعلم به حتى أخرجت من الحبس .

فقال له عبدالله : يا فتى احمد الله على ما وفق لك من قضاء دينك ، فلم يخبر ذلك الرجل أحدًا إلا بعد وفاة عبد الله .

وكانت أكثر نفقاته على طلبة أهل السنة وعلى الصوفية ، ولقد عوتب مرة فى ذلك كما يروى حبان بن موسى قال : عوتب ابن المبارك فيم يفرق المال فى البلدان ولا يفعل فى أهل بلده ، فأجاب بهذا الرد الجميل : « إنى أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق : طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب للحديث ، فاحتاجوا ، فإن تركناهم ضاع عليهم ، وإن أعناهم بثوا العلم لأمة محمد ﷺ ولا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم » .

ويروى عن على بن الحسن بن شقيق قال : بلغنا أنه قال للفضيل بن عياض : لولا أنت وأصحابك ما اتجرتُ .

قال : وكان ينفق على الفقراء فى كل سنة مائة الف درهم ، ومناقبه وفضائله كثيرة جدًّا .

وكان رضى الله عنه : يطعم أصحابه الفالوذج والخبيص ، ويظل هو نهاره صائمًا ، وقيل له مرة : قد قل المال فقلل من صلة الناس ؟ فقال : إن كان المال قل فإن العمر قد نفد .

وكان يتحرى دائمًا أن يأكل مع الضيف ويقول : بلغنا أن طعام الضيف لا حساب عليه ، قالوا : وكانت سفرة ابن المبارك تحمل على عجلة أو عجلتين .

وقال أبو إسحاق الطالقانى : « رأيت بعيرين محملين دجاجًا مشويا لسفرة ابن المبارك » .

وقال المسيب بن واضح : كنت عند عبد الله بن المبارك جالسًا إذ كلموه فى رجل يقضى عنه سبعمائة درهم دينًا فكتب إلى وكيله إذا جاءك كتابى هذا وقرأته فادفع إلى صاحب هذا الكتاب سبعة آلاف ،

فلما ورد الكتاب على الوكيل وقرأه التفت إلى الرجل فقال : أى شيء قضيتك ؟ فقال : كلموه أن يقضى عنى سبعمائة درهم دينًا ، فقال : قد أصبت فى الكتاب غلطًا ولكن اقعد موضعك حتى أجرى عليك من مالى وأبعث إلى صاحبى فأؤامره فيك ، فكتب إلى عبد الله بن المبارك : أتانى كتابك وقرأته وفهمت ماذكرت فيه وسألت صاحب الكتاب فذكر أنه كلمك فى سبعمائة درهم وهاهنا سبعة آلاف فإن يكن منك غلطًا فاكتب إلى حتى أعمل على حسب ذلك ، فكتب إليه : إذا أتاك كتابى هذا وقرأته وفهمت ما فيه فادفع إلى صاحب الكتاب أربعة عشر ألفًا ، فكتب إليه إن كان على هذا الفعال تفعل فما أسرع ما تبيع الضيعة ، فكتب إليه عبد الله بن المبارك : إن كنت وكيلى فأنفذ ما آمرك به ، وإن كنت وكيلك فتعال إلى موضعى حتى أصير إلى موضعك فأنفذ ما تأمرنى به .

وقال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ: من فاجأ من أخيه المسلم فرحة غفر الله له ، فأحببت أن أفاجئه فرحة على فرحة .

وقال إسماعيل بن عياش : حدثنى أصحابى أنهم صحبوه من مصر إلى مكة فكان يطعمهم الخبيص وهو الدهر صائم .

وقال داود بن رشيد : كان ابن المبارك عند أبى الأحوص فجاء رسول فلان الهاشمى بعض الولاة . فقال : يقرئك السلام ، ويقول : يا أبا الأحوص ! هذا شهر رمضان وقد وسعنا على عيالنا ، وهذه ألف درهم توسع بها عليهم فى هذا الشهر ، فقال أبو الأحوص . فعل الله به وفعل ، وقال : قل له يدعها عنده حتى إذا احتجنا إليها بعثنا فأخذناها .

قال : وانسل ابن المبارك إلى منزله فجاء بألف فقال : يا أبا الأحوص هذه الألف تنفقها فإني لا آمن أن يكون قد بلغ أهلك فيخاصمونك وهذه من وجه أرجو أن تكون أطيب ، فقبلها .

وقال ابن كثير : إن ابن المبارك خرج مرة إلى الحج فاجتاز ببعض البلاد فمات طائر معهم فأمر بإلقائه على مزبلة هناك ، وسار أصحابه أمامه : وتخلف هو وراءهم فلما مر بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها ، فأخذت ذلك الطائر الميت ثم لفته ثم أسرعت به إلى الدار . فجاء فسألها عن أمرها وأخذها الميتة ، فقالت . أنا وأخى هنا ليس لنا شيء إلا هذا الإزار وليس لنا قوت إلا ما يلقى عَلَى هذه المزبلة وقد حلت لنا الميتة منذ أيام ، وكان أبونا له مال ، فظلم وأخذ ماله وقتل ، فأمر ابن المبارك برد الأحمال وقال لوكيله كم معك من النفقة ؟ قال : ألف دينار ، فقال : عد منها عشرين دينارًا تكفينا وأعطاها الباقى ، فهذا أفضل من حجنا هذا العام ثم رجع .

ونختم الحديث فى ذلك بما يلى :

حدث مرة – كما يروى سلمة بن سليمان – قال : جاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فسأله أن يقضى دينًا عليه ، فكتب له إلى وكيل له ، فلما ورد عليه الكتاب ، قال له الوكيل : كم الدين الذى سألت فيه عبد الله أن يقضيه عنك ؟

قال سبعمائة درهم ، فكتب إلى عبد الله . إن هذا الرجل سألك أن تقضى سبعمائة درهم ، وكتبت له سبعة آلاف درهم وقد فنيت الغلات فكتب إليه عبد الله : إن كانت الغلات فنيت فإن العمر أيضًا قد فنى

فأوجز له ما سبق به قلمى » . وقد سبق ذكر هذه القصة مطولة ، وهكذا تسير الحياة بابن المبارك .

إنها جد فى جميع جوانبها ، وعمل دائب مستمر ، وقدره الناس وأحبوه حبًّا ملك عليهم أفئدتهم ، ومن مظاهر هذا الحب ما رواه شعيب بن شعبة المصيصى قال : قدم هارون الرشيد أمير المؤمنين الرقة ، فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك وتقطعت النعال ، وارتفعت الغبرة ، فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من برج من قصر الخشب ، فلما رأت الناس قالت : ما هذا ؟

قالوا : عالم من أهل خراسان قدم الرقة يقال له عبد الله بن المبارك ، فقالت : « هذا والله الملك لا ملك هارون الذى لا يجمع الناس إلا بالعصا والسياط ، والشرط والأعوان » .

وما من شك فى أن صفات ابن المبارك قد هيأته لحب الناس : كرم وشجاعة وعلم ؛ وإخلاص ، وما شئت فقل من صفات الخير .

وكان من شأنه تفخيم أصحابه ، يقول عبيد بن جناد : مارأيت أحدًا مثل ابن المبارك إذا ذكر أصحابه فخمهم ، يقول : « وأين مثل فلان ، ثم يقول الرفيع من يرفعه الله بطاعته والوضيع من وضعه » .

ولهذا يقول عبد الرحمن بن يزيد الجهضمى قال الأوزاعى : أرأيت ابن المبارك ؟

قلت : لا ، قال : لو رأيته لقرت عينك .

ويقول محمد بن عبد العزيز بن أبى رزمة : سمعت أبى يقول : قال

لى شعبة : عرفت ابن المبارك ؟ قلت : نعم ، قال : ما قدم علينا من ناحيتكم مثله .

وفى يوم من الأيام ، انتهت الحياة بابن المبارك ، انتهت به فى شهر رمضان ، وانتهت وهو منصرف من الغزو ، وكان قد وصل إلى بلدة « هيت » فتوفى بها .

ويقول الحسن بن الربيع : شهدت موت ابن المبارك ، مات سنة إحدى وثمانين ومائة فى رمضان لعشر مضين منه ، مات سحرًا ودفناه بهيت، وسألت ابن المبارك قبل أن يموت ، قال : أنا ابن ثلاث وستين .

وهيت – كما يقول المؤرخون – بكسر الهاء ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، وبعدها تاء مثناة من فوقها – مدينة على الفرات فوق الأنبار من أعمال العراق ، لكنها فى بر الشام ، والأنبار فى بر بغداد ، والفرات يفصل بينهما ، ودجلة تفصل بين الأنبار ، وبغداد ، وقبره ظاهر بها يزار .

قال الحسن بن الربيع : سمعت ابن المبارك حين حضرته الوفاة واقبل نصير ، يقول : يا أبا عبد الرحمنّ قل : لا إله إلا الله ، فقال له : يانصير ، قد ترى شدة الكلام على ، فإذا سمعتنى قلتها فلا تردها على حتى تسمعنى قد أحدثت بعدها كلاما ، فإنما كانوا يستحبون أن يكون آخر كلام العبد ذلك .

ويقول أحمد بن خالد : سمعت الفريابى يقول : رأيت النبى ﷺ فى النوم ، فقلت : يا رسول الله ، ما فعل ابن المبارك ؟ فقال : ﴿ مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقًا﴾ .

ولما بلغ هارون الرشيد موت ابن المبارك ، قال : « مات سيد العلماء » .

وقد رويت لابن المبارك كرامات كثيرة ، نذكر منها مايلى :

قال أبو وهب : مر عبد الله برجل أعمى ، فقال : أسألك بالله أن تدعو لى ، فدعا فرد الله عليه بصره وأنا أنظر .

وقال الحسن بن عيسى : كان عبد الله بن المبارك مجاب الدعوة .